وحدة القصيدة

في الشعر العربي

للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي

ما معنى وحدة القصيدة ؟

١ — نقرأ معلقة امرىء القيس : « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » ، ولامية مروان بن أبي حفصة : « طرقتك زائرة فحي خيالها » ، ورائية ابن الجهم :

عيون المها بين الرصافة فالجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

ونهج البردة لشوقي : « ريم على القاع بين البان والعلم » .

فنجد ألواناً شتى من الأغراض ، وتبايناً في الشاعرية حيال كل غرض ، واختلافاً واضحاً في كل قصيدة في الشعور والعاطفة والخيال .

٢ — ثم نقرأ قصيدة أبي تمام في فتح عمورية ، أو قصيدة ابن الرومي في رثاء ولديه ، أو مرثية أبي العلاء : —

غير مجد في ملتي واعتقادي نوحُ باك ولا ترنمُ شاد

أو نونية ابن زيدون ، أو تائية ابن الفارض الكبرى : —

سقتني حُميّا الحب راحةُ مقلتي وكأسي محيّا مَنْ عن الحسن جلّت

أو قصيدة البديع في وصف الأسد :

أقاطم لو شهدت ببطن خبت وقد لاق الهزبر أخاك بشراً [1]

---

(١) مقامات البديع ص ٤١٨ — ط ١٩٣٢ — المقامة البدرية

أو قصيدة شوقي « أخرية الشراء » : —

في مهرجان الحق أو يوم الدم صيح من الشهداء لم تتكلم

أو قصيدة الزهاوي : « روض الشعر »[1] أو قصيدته : « عند الفراق »[2]

نقرأ هذه القصائد وما شابهها ، فماذا نجد ؟

نجد وحدة في الغرض ، واتفاقاً في القافية ، والتئاماً في العاطفة والخيال والفكرة ، وتبدو القصيدة كأنها عمل فني كامل ، لا نقص ولا تشويه ، ولا غرض أو اعتراض . . وتقف أمام الجمال الفني الآخاذ ، يضيء ويسحر ، كما يضيء الفجر ، ويسحر البحر ، ويروع ويعبق روعة السحر ، وعبق الزهر .

هكذا نشعر من أعماق قلوبنا وأذواقنا بالوحدة في القصيدة ، والجمال في الفن .

٣ — فنحن نريد بوحدة القصيدة أن تكون تعبيراً متميزاً ، في فكرة واحدة ، قد أتى بها لغرض واحد . إنما نريد مع ذلك كله تلك الوحدة الفنية التي يجب أن تسود القصيدة كلها ، بما تشتمل عليه من شاعرية وخيال وعاطفة وأسلوب . حتى تشعر بروح الشاعر في قصيدته ، ونرى ذكاءه وبراعته في التوفيق بين الصور والأشكال والظلال والألوان ، وحذقه في ايقاظ الحياة والروعة في ألفاظه وأساليبه ، وأفكاره ومعانيه ، وعواطفه وخيالاته . حتى لتنطق الصورة ، وتتحرك الحياة فيها ، وتغني الوحدة في أجزائها ، ويسودها الانسجام والنظام والالتئام ، كما نجد في وصف البحتري لايوان كسرى ، وفي مرثية البحتري للمتوكل ، وفي وصف شوقي لقصر « أنس الوجود » ، وفي آثار أخرى في شعر كثير من الشعراء في القديم والحديث . . . وقد أشاد الأدباء المعاصرون بابن الرومي وشعره ، لهذه الوحدة الفنية النادرة في قصائده وأوصافه .

إننا نمزج في وحدة القصيدتين الوحدة الفنية ووحدة الفكر ووحدة الموضوع أو الغرض كما يقال . ونرى ذلك كله لازماً لاستيفاء القصيدة حظها من الانسجام والجمال . . . والذين يتحدثون عن وحدة الأغراض الشعرية وحدها في القصيدة حين يتحدثون عن وحدتها ، إنما ينظرون الى أظهر عناصر الموضوع فحسب ، وإن كان اتحاد الشاعرية أدق ما في وحدة القصيدة من عناصر وحقائق .

وحول الوحدة الفنية للقصيدة يقول صاحب كتاب « ثورة الأدب » : « ليس

(١) ديوان الزهاوي ص ٢٥٨ — ط ١٩٢٤ (٢) المرجع نفسه ص ٣٤٤

القصد من الشعر في رأينا هو محاكاة الأقدمين ، إنما القصد من الشعر إبراز فكرة أو صورة أو إحساس ، أو عاطفة يفيض بها القلب ، في صيغة مشتقة من اللغة ، تخاطب النفس ، وتصل الى أعماقها ، من غير حاجة الى كلفة أو مشقة » (١)

وحول هذا المعنى الذي أردناه من وحدة القصيدة يدور الحاتمي الأديب الناقد المتوفى ٣٨٤ هـ ، إذ يقول(٢) : « مثل القصيدة مثل الانسان ، في اتصال بعض أعضائه ببعض ، فهي اتصل واحد عن الآخر ، وباينه في صحة التركيب ، غادر الجسم ذا عاهة ، تتخون محاسنه ، وتبقى معايبه » . . ويسير جل الشعراء المجيدين ، من متقدمين ومحدثين ، في هذه الناحية ، فيقول : « وقد وجدت حذاق المتقدمين ، وأرباب الصناعة من المحدثين ، يحترسون في مثل هذا المقال احتراساً يجنبهم شوائب التقصان ، ويقف بهم على محجة الاحسان ، حتى يقع الاتصال ، ويؤمن الانفصال ، وتأتي القصيدة في تناسب صدورها وأعجازها ، وانتظام تسيبها بتديحها ، كالرسالة البليغة ، والخطبة الموجزة ، لا ينفصل جزء منها عن جزء . . . وهذا مذهب اختص به المحدثون ، لتوقد خواطرهم ، ولطف أذكارهم ، واتساع البديع وأفانينه في أشعارهم . وهو مذهب سهلوا حزنه ، ونهجوا دارسه » .

والحاتمي في شرحه هنا لوحدة القصيدة محتم مجيد : ولكنه يرى أن اتصال الغزل بالمديح في القصيدة لا يمنع وحدتها ، مادام هذا الاتصال قويًّا شديداً . فكأنه لا يرى تعدد الأغراض في القصيدة مانعاً من وحدتها . . وهذا ما نخالفه فيه ، ولا نقره عليه .

نظام القصيدة في الشعر العربي القديم

ترى أشهر القصائد الجاهلية قد بدئت بالنسيب المذيب الجميل ، ثم يتصل فيها النسيب بذكر الناقة ووصفها وكرب الفلوات عليها ، وقد يلم الشاعر بوصف ما يشاهد في الصحراء من أسراب الوحش والظباء ثم يتخلص إلى غرضه المقصود ، من مدح أو هجاء ، أو فخر ، أو عتاب ، أو اعتذار ، أو حكمة .

يظهر ذلك النهج الجاهلي في المعلقات ، وفيما سواها من كبريات القصائد وعيونها ، في هذا العصر البعيد . . ولا نجد شاعراً يشذ من ذلك إلا عمرو بن كلثوم التغلبي في معلقته

(١) ثورة الأدب للدكتور ميكل ص ٦٠
(٢) زهر الآداب جزء ٣ ص ١٦ — لزكي مبارك

المشهورة : « ألا هبي بصحنك فاصبحينا » ، فقد بدأها بوصف الراح ، ثم وصل ذلك بغزله وتخمره ووصف وقائع قومه وذكريات مجدهم القديم الخالد . وهناك قصائد ثلاث من الشعر الجاهلي تمتاز بخلوها من تعدد الأغراض :

أولاها — قصيدة المرقش الأكبر .

سرى ليلاً خيال من سليمى فأرقني وأصحابي هجود (١)

فهي وقف على الحب والغزل ووصف الحال

والثانية — قصيدة لامية لطرفة العبدي ، مطلعها : —

أتعرف رسم الدار قفراً منازله كجفن اليماني زخرف الوشي ماثله

فهي كذلك وقف على الغزل .

والثالثة — قصيدة تأبط شراً الشاعر الجاهلي المشهور : —

إن بالشعب الذي دون سلع لقتيلاً دمه ما يطل (٢)

وهي في الرثاء ، وقد ترجمها « جوته » الى الألمانية ، ونشرها في الديوان الشرقي ، ونقلت الى الفرنسية والانجليزية والايطالية ، ويسميها بعض المستشرقين « نشيد الانتقام » وهي نمط جميل مهذب لوحدة القصيدة في الشعر الجاهلي ، وشتان بينها وبين قصائد الرثاء في هذا العصر السحيق . وحسبكم أن شاعراً أراد أن يرثي أخاه فبدأ قصيدته بالنسيب ، ثم خلص الى الرثاء ، وهو دريد بن الصمة النضيري الشاعر في قصيدته الدالية : —

أرثٌ جديد الحبل من أم معبد بعاقبة أم أخلفت كل موعد

هذا هو نظام القصيدة في العصر الجاهلي : تعدد في الأغراض والفكرة ، وانتقال من لون من ألوان الشعور الى لون آخر وقد يفاجيء الشاعر سامعيه مفاجأة ، فيتخلص من غنائه إلى التنويه بممدوحه فجأة ، كما صنع زهير في رائيته في مدح هرم بن سنان ، فقال بعد أن ذكر الديار :

دع ذا وعدّ القول في هرم خير البداة وسيّد الحضر (٣)

وقد يتخلص الشاعر في رفق وجمال إلى غرضه ، كما فعل النابغة في قصيدته العينية التي

(١) الحياة الادبية في العصر الجاهلي ص٢٥٣ — محمد خلفي — ط ١٩٤٨ (٢) الشعب : طريق في الجبل موضح — سلع : موضع وهو أرض قوم الشاعر . طل دمه : دمه هدراً لا يثأر به .
(٣) جمع حضر كراكب وركب .

يستذر بها إلى النعمان بن المنذر ، حيث ذكر نميمة ودسيعته وشيبه ، ثم خلص إلى الاعتذار فقال : —

ولكن ما دون ذلك شاغل مكان الشُّفاف تبتغيه الأصابع
وعيدُ أبي قابوس في غير كنهه أتاني ودوني راكس فالضواجع

ثم وصف حاله عند ما سمع وعيد النعمان ، فقال : —

فبت كأني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السمُّ ناقع
يُسهدُ في ليل التمام سليمها لحلي النساء في يديه قعاقع[1]

ثم خلص إلى الاعتذار ، وهو الفن الذي نبغ فيه وشهر به فقال : —

أتاني — أبيتَ اللعن — أنك لمتني وتلك التي تستك منها المسامع

وهذا من لطف التخلص ، « ولو[2] توصل إلى ذلك بعض الشعراء المحدثين ، الذين واصلوا تقنيق المعاني ، وفتحوا أبواب البديع ، واجتنوا ثمر الآداب ، وتنحوا زهر الكلام ؛ لكان معجزاً عجباً ؛ فكيف بجاهل بدوي ، إنما يغترف من قليب قلبه ، ويستمد على هاجسه كما يقول الحاتمي الناقد القديم .. وهذا اللطف في التخلص لا نعني به لأنه يمنح القصيدة الوحدة الشعرية ، ولكننا نتحدث عنه لوناً من ألوان فطنة العرب في المعاني والأداء ، ولأنه كان تمهيداً لهذه الوحدة التي هي موضوع بحثنا . ويقول ابن رشيق في العمدة : وكانت العرب لا تذهب هذا المذهب — أي حسن التخلص — في الخروج إلى المدح ، بل يقولون عند فراغهم من نعت الابل ، وذكر القفار ، وما هم بسبيله : « دع ذا وعد عن ذا » ؛ ويأخذون فيما يريدون ، أو يؤثرون بأنّ المقصدة» ابتداء الكلام الذي يقصدونه .. ولربما قالوا بعد صفة الناقة والمفازة : إلى فلان قصدت ، وحتى نزلت بفناء فلان ، وما شاكل ذلك . فإذا لم يكن خروج الشاعر إلى المدح متصلاً بما قبله ، ولا منفصلاً بقوله « دع ذا وعدّ عن ذا ونحو ذلك » ، سمي مقرة وانقطاعاً[3] .

هذا هو نهج القصيدة عند الجاهليين ، ويقول الحاتمي في ذلك : فأما الفحول الأوائل

---

(١) راجع العمدة لابن رشيق جزء ١ ص ١٥٨ وزهر الآداب جزء ٣ ص ١٦
(٢) زهر الآداب جزء ٣ ص ١٧
(٣) العمدة جزء ١ ص ١٥٩

ومن قلائم من المخضرمين والاسلاميين فذهبهم أن يقولوا : « عدّ عن كذا إلى كذا »، وقصارى كل أحد منهم وصف ناقته بالمتن والنجابة والنجاء ، وانه منطاها فأوّرع عليها جلباب الليل ، وربما اتفق لاحدهم معنى لطيف يتخلص به إلى غرض لم يقصده ، إلا أن طبعه السليم ، وضراطه المستقيم ، قد نفى بشاره ، وأورقد باليفاع ناره [1] »

وقد تعصّب كثير من النقاد وعلماء الأدب ، لهذا النهج الجاهلي ، الذي لا يعدّ إن وحدة القصيدة بسبب، ودافعوا عنه دفاعاً حارّاً . يقول ابن قتيبة المتوفى ٢٧٦ هـ[2] : وعمت بعض أهل العلم يقول : إن مقصد القصائد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار ، والدمن والآثار ، فشكا وبكى ، وخاطب الربع ، واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها ، إذ كان نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر ، لانتجاعهم الكلأ ، وانتقالهم من ماء إلى ماء ، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان . ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شدة الشوق وألم الوجد والفراق وفرط الصبابة ، ليميل نحوه القلوب ، ويصرف اليه الوجوه ، ويستدعي به إصغاء الاسماع إليه ، لأن النسيب قريب من النفوس لائط بالقلوب ، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء ، فليس يكاد يخلو أحد من أن يكون متعلقاً منه بسبب ، وضارباً فيه بسهم . فاذا علم أنه قد استوثق من الاصغاء إليه ، والاستماع له ، عقب بايجاب الحقوق ، فرحل في شعره ، وشكا النصب والسهر ، وسرى الليل ، وإضاء الراحلة والبعير ، فاذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء ، وزمام التأميل ، وقرر عنده ما ناله من المكاره في السير بدأ في المديح ، فبعثه على المكافأة ، وهزّه على السماح . . فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب ، وعدل بين هذه الأقسام » .

وابن قتيبة هنا لا يبرر هذا النهج لأنه هو الحق في ميزان الأدب والنقد ، ولا لأنه هو الصورة المثلى للقصيدة الجاهلية ، ولا لأنه سبب من أسباب الروعة والجمال في الشعر والقصيد ، ولكن إنما يبرره لأنه نهج الجاهليين حسب .

وهكذا يفهم كثير من النقاد القدامى النهج الفني للقصيدة ، ووحدة القصيدة في الشعر العربي . وهو فهم لا يخلو من عصبية وجور .

[يتبع]

(١) زهر الآداب جزء ٣ ص ١٦

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ط ١٩٣٢ ص ١٤ و ١٥